

ثورات الحركة الخارجية الصفرية في المغرب الإسلامي (120- 132هـ) وتداعياتها

د/عبيد بوداود،

قسم التاريخ،

المركز الجامعي معسكر.

ثمة مشكلة منهجية لا بد من الإشارة إليها قبل الشروع في عرض حيثيات هذا الموضوع، وتتمثل في أن المصادر التي تعرضت له بعيدة عن زمن الأحداث والوقائع بعدة قرون، مما يطرح أماناً مسألة مصداقية المعلومات الواردة فيها، كما أن هذه المعلومات تتميز بالقلّة والتضارب في ذكر وتحديد أسماء المواقع العسكرية، والقواد، ونتائج هذه المعارك لاسيما عدد القتلى والأسرى، كما أن بعض النصوص الواردة بهذا الشأن متقاربة في محتواها وألفاظها مما يوحي بانتقالها من مصدر لآخر، وهنا لا يصبح التعدد في المصادر دليلاً على التنوع والثراء بقدر ما هو تكرار لها. بالإضافة إلى ذلك فإن المعلومات الواردة في هذه المصادر لا تتعدى الإشارة إلى المعارك العسكرية، والنتائج المترتبة عليها مباشرة، أما القضايا الأخرى مثل مسألة تاريخ دخول المذهب الصفري إلى المغرب الإسلامي، والمناطق التي استقر بها، وكيف كانت تعيش الجماعة الصفرية؟ ومدى تمثلها واعتناقها للمبادئ الصفرية؟ وما هي بواعثها الحقيقية على التمرد والثورة ضد الدولة الأموية؟ فتبقى مجرد تخمينات وتأويلات تفتقر إلى الدليل، وتخضع لضغط الانتماءات الفكرية سواء الإيديولوجية منها أو المذهبية للباحثين الذين طرّقوا هذا الموضوع.

إن أقدم مصدر تضمن معلومات عن الحركة الخارجية الصفرية في المغرب الإسلامي، هو كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة 257هـ، أي بما يزيد عن القرن من زمن وقوع الثورات الأولى للحركة الخارجية الصفرية بالمغرب الإسلامي، ثم يأتي بعد ذلك كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني المتوفى في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وعن هذين المصدرين نقلت بقية المصادر الأخرى، والتي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، ومن بينها الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت 630هـ)، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت 732هـ)،

وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لعبد الرحمان بن خلدون (ت 808هـ).

ولتغطية الموضوع وضعنا خطة اشتملت على العناصر التالية:

1- تعريف مختصر بالصفورية، وتحديد ما يميزها عن الفرق الخارجية الأخرى.

2- دخول المذهب الصفري إلى المغرب الإسلامي.

3- الظروف والعوامل المساعدة على اعتناق المذهب من قبل البربر.

4- أهم الثورات وأواخر العهد الأموي، والتداعيات المترتبة عليها.

تعتبر الصفورية فرقة من الفرق الخارجية احتلت منزلة الوسط بين فرقة الأزارقة الموسومة بالتطرف، والإباضية المنعوتة بالاعتدال، ولم يعلم لهذه الفرقة نشاط بالمشرق إلا مع سنة 76هـ حينما قاموا بثورة ضد الأمويين بقيادة صالح بن مسرح. ولقد ركزوا جل ثوراتهم على منطقة الموصل والجزيرة وديار بكر. (عبد الرزاق، م. 1985: 46).

وهناك تفسيرات مختلفة لأصل التسمية إلا أن أقربها إلى الحقيقة هي النسبة إلى مؤسس هذه الفرقة المختلف في ضبط اسمه بين عبد الله بن الصفار (عبد الرزاق، م. 1985: 44)، وزياد بن الأصفر (الشهرستاني، م. 1994: 99).

اختلفت الصفورية عن بقية الفرق الخارجية الأخرى لاسيما الأزارقة، والنجادات، والإباضية في مجموعة من الأمور من أهمها: "إنهم لم يكفروا القعدة عن القتال، إذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد... ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار. وقالوا التقية جائزة في القول دون العمل...ونقل عن الضحاك منهم أنه جوز تزويج المسلمات من كفار قومهم في دار التقية دون دار العلانية." (الشهرستاني، م. 1994: 99-100). واعتبرت هذه الأمور دليلا على نوع من الاعتدال سمح للفرقة الصفورية من الاندماج في الجماعة الإسلامية لاسيما معاشة تلك الجماعة باستعمال مبدأ التقية، والسماح للنساء من المذهب الصفري من الزواج بالمسلمين من غير رجال الطائفة، ومسألة الجهاد.

راهننت الصفورية شأنها في ذلك شأن بقية الفرق الإسلامية، لاسيما الخوارج والشيعية على الولايات الإسلامية البعيدة عن مركز الخلافة لعلها تتمكن من

تحقيق بعض المكاسب السياسية، وكانت تطمح أساسا إلى تأسيس دولة لها، وذلك على إثر الهزائم التي تلقتها على مستوى المركز. وكانت ولاية المغرب الإسلامي في طليعة اهتمامات هذه الفرقة، وما شجع على ذلك الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها المغرب الإسلامي أواخر القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري.

استعمل الصفرية أسلوب الدعوة السرية، وبعثوا بدعاة لهم إلى المغرب الإسلامي، لكننا لا نعلم على وجه الدقة متى وفد دعائهم الأوائل، ولكن من المرجح أن يكون ذلك مع نهاية القرن الأول الهجري أو مطلع القرن الثاني الهجري، إذ يتردد أن أول داعية صفرية قدم إلى المغرب الإسلامي هو عكرمة مولى ابن عباس الذي رافق الداعي الإباضي سلمة بن سعيد إلى إفريقية. (بن عميرة، م. 1984: 65) ويذكر أن عكرمة هذا هو من أصل مغربي، وصار من كبار فقهاء المذهب الصفرية. (عبد الرازق، م. 1985: 47). وما من شك أنه ساهم في تكوين عدد من الدعاة الذين ساهموا بدورهم في نشر مبادئ الصفرية بين البربر.

ويذكر ابن خلدون أن الإسلام لم يستقر ببلاد المغرب، ولم يذعن البربر لحكمه إلا بعد فتح الأندلس من قبل موسى بن نصير وطارق بن زياد، حيث أجاز معهما الكثير من رجالات البربر برسم الجهاد. ويستطرد قائلا: "ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقلين من منبعها بالعراق. وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية". (ابن خلدون، ع. 1992: 6، م. 129). وهذا ما ينهض دليلا على أن انتقال الفكر الخارجي إلى بلاد المغرب كان بفضل مساع حثيثة من قبل دعاة المذهب الذين كانوا في الغالب من أصول عربية قبل أن يحتضنه الموالي من أعراق مختلفة. ويضيف ابن خلدون في هذا الشأن: "وفشت هذه البدعة وأعقدها رؤوس النفاق من العرب وجراثيم الفتنة من البربر ذريعة إلى الانتزاع على الأمر فاختلفوا في كل جهة". (ابن خلدون، ع. 1992: 6، م. 129).

لكن أسبابا وجيهة كانت وراء ثورة البربر ضد الدولة الأموية، لعل من أبرزها السياسة غير الحكيمة التي سلكها بعض الولاة تجاه البربر، سواء ما تعلق منها بالسياسة الجبائية، أو معاملة العناصر البربرية داخل الجيش، أو ما كانت تخلفه الحملات العسكرية ضد بعض المناطق والقبائل البربرية من مآس، وغيرها.

ولقد بدأ هذه السياسة يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج، الذي عين واليا على بلاد المغرب الإسلامي سنة 101هـ أو 102هـ، وكان هذا الأخير متأثرا بسياسة مولاه الحجاج بن يوسف في معاملة المسلمين الجدد، بفرض الجزية عليهم رغم إسلامهم، لكنه لم يدرك خصوصيات بلاد المغرب مما جعله يدفع حياته ثمنا لهذه السياسة الظالمة: "...وقتل وكان سبب قتله أنه أراد أن يسير في أهل إفريقية بسيرة الحجاج في أهل الإسلام، الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة، فإنه ردهم إلى قراهم، ووضع عليهم الجزية على ما كانوا عليه قبل الإسلام، فلما عزم يزيد بن أبي مسلم على ذلك، اجتمع رأي أهل إفريقية على قتله، فقتلوه، وولوا عليهم الوالي الذي كان قبله، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: أنا لم نخلع أيدينا من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون، فقتلناه وأعدنا عاملك، فكتب إليهم: أنه لم يرض بما صنع، وأقر محمد بن يزيد على عمله. ثم ولى بشر بن صفوان الكلبي..." (النويري، أ. 1985: 211 - 212).

إن هذه الحادثة تؤرخ لبداية التوتر بين البربر والدولة الأموية، وإن كانت عبارة " واجتمع أهل إفريقية على قتله " لا تعني البربر وحدهم، بل كذلك العرب الذين استقروا إلى جنبهم، وإن كانت السياسة المذكورة لا تعنيهم مباشرة. كما أننا لم نستطع أن نتبين من النص الجماعة التي راسلت الخليفة يزيد بن عبد الملك وإلا لأمكننا تحديد هوية الناقمين المباشرين على سياسة الوالي الجديد.

كما أن سببا آخر أورده الرقيق القيرواني بشأن مقتل يزيد بن أبي مسلم، ويتمثل في عزمه على وشم أيدي حرسه، حيث يذكر: "فقدمها سنة اثنتين ومائة، ومكث أشهراً، وحرسه البربر خاصة، ليس فيهم أحد من البرانس، فقام يزيد بن أبي مسلم خطيباً على المنبر فقال: أيها الناس إنني قد رأيت أن اسم حرسني في أيديهم كما تفعل ملوك الروم بحرسها، فأسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره "حرسني" ليعرفوا في الناس بذلك من غيرهم، فإذا دفعوا إلى أحد أسرع فيما أمرته به. فلما سمع ذلك حرسه، اتفقوا عليه، وغضبوا، وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى. ودب بعضهم إلى بعض، وتعاهدوا على قتله. فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه." (الرقيق، إ. 1990: 64).

إن هذا النص يحصر مسؤولية قتل يزيد بن أبي مسلم في حرسه من البربر البتر الذين رفضوا أن يعاملهم كما يعامل ملوك النصارى حرسهم. والظاهر أن رد فعلهم هذا يعكس رفضهم للكثير من الإجراءات التي اتخذها يزيد بن أبي مسلم بحقهم، أو بحق أسرهم بما في ذلك مسألة الجزية المذكورة في النص السابق، وجاء السبب المذكور في النص الأخير كالقطرة التي أفاضت الكأس بدليل ما ورد عند ابن خلدون: "ثم تناول البربر إلى الفتك بأمراء العرب، فقتلوا يزيد بن أبي مسلم سنة اثنتين ومائة لما نعموا عليه في بعض الفعلات" (ابن خلدون، ع. 1992: م6، 129-130).

ويوجد ملخص لأسباب تدمير البربر من السياسة الأموية في التقرير الشفوي الذي تقدم به وفد من البربر برئاسة ميسرة المطغري حينما قدم على هشام بن عبد الملك، يريد أن ينقل إليه شكوى أهل المغرب من تجاوزات عمال بني أمية، لكن الأبرش حال دون دخولهم على الخليفة، حيث جاء فيه: "أبلغ أمير المؤمنين، أن أميرنا يغزو بنا ويجنده، فإذا غنمنا نفلهم، ويقول: هذا أخلص لجهادكم، وإذا حاصرنا مدينة، قدمنا وآخرهم، ويقول: هذا ازدياد في الأجر، ومثلنا كفى إخوانه، ثم أنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها ويطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فاحتملنا ذلك، ثم إنهم سامونا، أن يأخذوا كل جميلة من بناقتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا؟" (بن عميرة، م. 1984: 63 نقلا عن ابن الأثير، ع. 1967: ج3، 47).

فإذا صحت هذه الرواية، فإن التمييز في المعاملة بين الجند المشكل لجيش ولاية المغرب الإسلامي، شكل سببا فارقا في رد فعل البربر، حيث أنهم كانوا يشكلون النسبة الأكبر من هذا الجيش، لكنهم لم يتمتعوا بنفس الحقوق لاسيما في اقتسام الغنائم أثناء الغزوات. ومن أهم تلك الغزوات غزة صقلية سنة 101هـ على عهد يزيد بن أبي مسلم، ثم غزوة نفس الجزيرة مجددا سنة 109هـ على عهد بشر بن صفوان، وغزو عبيد الله بن الحبحاب لجزيرة سردينية سنة 117هـ، وغزوه لبلاد السوس وأرض السودان. (عبد الرازق، م. 1985: 33)

كما أن الولاة كانوا يجتهدون في جمع الغنائم للخلفاء إرضاء لهم، ورغبة في الحفاظ على مناصبهم، فتعسفوا في جمع الضرائب لاسيما في ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي استعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة وما والاها أي بلاد المغرب الأقصى حاليا فأساء السيرة: "...وتعدى في الصدقات والقسم، وأراد أن يخمس البربر، وزعم أنهم في المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يؤمن منهم ولم يجب إلى الإسلام". ولجأ عمر بن عبد الله المرادي إلى هذا الإجراء بعد أن تناقصت مداخيل الولاية بانتقال البربر إلى الإسلام، وتراجعت عمليات الغزو. (الرفيقي، إ. 1990: 73). وكان هذا السبب المباشر في ثورة ميسرة المطغري التي سوف نتعرض لها لاحقا.

كما كان الولاة والأمراء يتقربون للخلفاء بجمع الهدايا والطرف من بلاد المغرب ويتغالون في ذلك، وهذا ما ميز ولاية ابن الحبحاب خاصة مع عامله عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة، وابنه إسماعيل الذي استعمله على السوس وما وراءه، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "واتصل أمر ولايتهم، وساءت سيرتهم في البربر، ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات والأفرية العسلية الألوان، وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالون في جمعهم ذلك وانتحاله. حتى كانت الصرمة من الغنم تستهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه. فكثرت عيشتهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم، وامتنعوا لذلك ميسرة الحفيد زعيم مطغرة وحمل البربر على الفتك بعمر بن عبد الله عامل طنجة." (ابن خلدون، ع. 1992، م: 6: 140).

لقد وجدت الأفكار الخارجية ببساطتها، وتأكيدها على حق كل مسلم في اعتلاء منصب الخلافة، استحسانا وقبولا من قبل البربر الساخطين على الخلافة الأموية بسبب سياسة ولايتها، فأصبحوا يتطلعون إلى تأسيس دولة لهم بعد القضاء على الوجود الأموي، وخاب أملهم في الإصلاح بعد أن تبين لهم أن سياسة الولاة ما هي إلا تطبيقا لرغبة الخلفاء. وكانت الأفكار الخارجية تنتشر بسرعة في ذلك الوقت: "وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سرت في البربر وتلقنها رؤوسهم من عرب العراق الساقطين إلى المغرب نزعوا بها إلى الأطراف داعين أعمار الأمم إليها عسى أن تكون لهم دولة، فاستحكمت صيغتها في طعام البربر ووشجت فيهم عروقها

فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب في خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم في سلطانهم." (الناصرى، أ. 1997: ج1، 162- 163)

استطاعت الأفكار الخارجية لاسيما الصفورية منها من إيجاد موطئ قدم لها ببلاد المغرب الإسلامي، وجلبت إليها كل الناقمين على الحكم الأموي، سواء الجند الذين عانوا من التمييز، أو عامة الناس الذين أرهقتهم المغارم، أو الذين سلبت منهم أموالهم وقتلت ماشيتهم، أو الذين كانوا يرون في الحكم الأموي أنه غير شرعي ويجب محاربته، أو الذين كانوا يتطلعون إلى تأسيس دولة للبربر بعيدة عن حكم العنصر العربي. لذلك فلا غرابة من الثورة العارمة التي سيفجرها البربر ضد الخلافة الأموية باسم الخوارج الصفورية. ولنبدأ باستعراض هذه الثورات:

أولاً: ثورة ميسرة سنة 122هـ: بالنظر إلى الأسباب المذكورة سلفاً لاسيما سوء صنيع عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة وما والاها مع البربر، انتهز هؤلاء خروج جيش الولاية إلى صقلية للغزو بقيادة حبيب بن أبي عبيدة، وقاموا بالثورة ضد الوالي عبيد الله بن الحبحاب. وبدؤوا تلك الثورة بطنجة حيث قتلوا عاملها عمر بن عبد الله المرادي سنة 122هـ، ثم زحفوا إلى إقليم السوس فقتلوا عامله إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب.

وتولى قيادتهم في هذه المرحلة ميسرة المطغري، وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم: "وانتقضت البربر على عبيد الله بن الحبحاب بطنجة، فقتلوا عامله عمر بن عبد الله المرادي، وكان الذي تولى ذلك ميسرة الفقير البربري ثم المدغري، وهو الذي قام بأمر البربر وادعى الخلافة وتسمى بها وبويح عليها." (ابن عبد الحكم، ع. 1995: 246)

لقد اختار هؤلاء الثوار الوقت المناسب لإعلان ثورتهم بعد احتقان الأمور، وكذلك كانوا على علم بغياب جيش الولاية، كما اختاروا المكان المناسب أي إقليم طنجة، وهو أبعد الأقاليم عن مركز الولاية. كما أفصحوا عن نياتهم منذ البداية حينما بايعوا ميسرة بالخلافة. أي أن هذه الثورة لا تمثل احتجاجاً اجتماعياً ظرفياً وإنما تطمح إلى تأسيس خلافة تؤمن بالأفكار الخارجية الصفورية. وكان

حجم هذه الثورة كبيراً إلى درجة وصفها بـ: "وتداعت عليه (أي البربر) بأسرها مسلمها وكافرها، وعظم البلاء" (ابن الأثير، ع. دون تاريخ: 714)، "واضطرم المغرب ناراً وفشت نحلة الخارجية في جميع قبائله، وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد." (الناصري، أ. 1997، ج1: 165) "وتداعت عليه بأسرها، وعظم البلاء، وذلك في سنة اثنين وعشرين ومائة، وهي أول فتن كانت بإفريقية في الإسلام... وفي المغرب يومئذ قوم فيهم دعوة الخوارج، وفيهم عدد كثير وشوكة" (الرقيق، إ. 1990: 73-74).

اختلفت المصادر فيما بينها في التسمية الكاملة لزعيم هذه الثورة، فهناك من أطلق عليه اسم: "ميسرة الفقير البربري ثم المدغري" (ابن عبد الحكم، ع. 1995: 246)، "ميسرة المدغري" (الرقيق، إ. 1990: 74، النويري، أ. 1985: 214)، "ميسرة السقاء ثم المدغوري" (ابن الأثير، ع. دون تاريخ: 714)، "ميسرة المظفري" (مجهول، 2005: 139).

كما تتضارب الأخبار بشأن هذه الشخصية، فابن الأثير يقول عنه أنه كان صفرياً وسقياً. (ابن الأثير، ع. دون تاريخ: 714)، وابن خلدون يقول عنه أن كان شيخ قبيلة مطغرة، وكان يعرف بالحفير أو الحفيد. (ابن خلدون، ع. 1992: 6، 140). وأظن أن هذا الأمر الأخير هو تصحيف من النسخ، وعدم ضبط من قبل الناشرين والمحققين.

فما من شك أن لهذه الشخصية خطرهما ووزنها وإلا ما تبعته جموع البربر في ثورتها العارمة ضد الدولة الأموية. ويذكر أن ميسرة قد تلقى المذهب الصفري على يد فقيه المذهب عكرمة بمدينة القيروان مستتراً، وحتى لا يكتشف أمره، كان يشتغل بالسقاية في سوق القيروان، وكان زعيماً لقبيلته مطغرة التي عاد إليها فيما بعد لنشر المذهب بين قومه. (عبد الرازق، م. 1985: 47) ثم ما لبث بعد ذلك أن انضمت إلى دعوته قبائل مكناسة وبرغواطة. (سالم، أ. 1981: ج2، 304). كما يعتقد أنه هو الذي ترأس وفد البربر الذي ذهب إلى دمشق لينقل شكوى البربر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (ابن عميرة، م. 1984: 69).

إن أول عمل قام به ميسرة بعد قتل عمر بن عبد الله المرادي، هو استعمال عبد الأعلى بن جريج الإفريقي على طنجة، وكان من أصل رومي، وهو من موالى

ابن نصير (ابن عبد الحكم، ع. 1995: 246). وينفرد ابن عبد الحكم بأن جعله من موالي ابن نصير، بينما بقية المصادر الأخرى تذكر أنه من موالي العرب دون تحديد(أنظر مثلاً: ابن خلدون، ع. 1992: 6، 130، وكذلك الناصري، أ. 1997: ج1، 165).

ولما سمع عبيد الله بن الحبحاب بثورة البربر بقيادة ميسرة، ولاحتواء الموقف سير إليهم جيشاً بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري، ولخطورة الأمر استدعى جيش والده حبيب بن أبي عبيدة المرابط بصقلية، وعزز به الجيش الأول، لكن هذا الأخير لم يشترك في الموقعة الأولى حيث لم يبرح نهر الشلف. والتقى الجيشان العربي بقيادة خالد بن أبي حبيب، والبربري بقيادة ميسرة قرب طنجة، وكان بينهما قتال شديد لكن الأمر لم يحسم لأي طرف، مما أدى بميسرة إلى الانسحاب، فأنكر عليه البربر ذلك فأقدم البربر على قتله، وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتي (الرقيق، إ. 1990: 74، ابن الأثير، ع. دون تاريخ: 714، النويري، أ. 1985: 214). وينفرد ابن عبد الحكم بخبر ولاية أمر البربر بعد ميسرة لعبد الملك بن قطن المحاربي (ابن عبد الحكم، ع. 1995: 246)، وهو خطأ لأن هذا الأخير تولى أمر الأندلس.

لا نعلم على وجه الدقة السبب الحقيقي لقتل ميسرة، فالعبارات الواردة في المصادر هي عامة مثل تغير سيرته، وإنكار البربر لذلك. والظاهر أن تراجعته عن مواصلة النزال في أول احتكاك مع جيش الولاية هو الذي جعله يدفع حياته ثمناً لذلك. وقد أدى مقتله إلى افتراق أصحابه، ومنهم مغرور بن طالوت وطريف أبو صالح الذي نزل بتامسنا (بن عميرة، م. 1984: 70).

ثانياً: معركة الأشراف سنة 123هـ: تواصلت ثورة البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي الذي لا تقدم المصادر عنه شيئاً يذكر باستثناء أنه من قبيلة هتورة إحدى بطون زناتة، الذي قاد البربر إلى نصر ساحق ضد قوات خالد بن حبيب بحيلة منه في أحواز طنجة، حيث قتل خالد وجميع من معه من سادات العرب وفرسانها. ولذلك سميت بمعركة الأشراف لشرف من قتل فيها من العرب (الرقيق، إ. 1990: 75).

وقد أدت نتائج هذه المعركة إلى تشجيع المترددين من البربر على الانضمام إلى الثورة، وإلى توسع رقعة هذه الأخيرة. ولما وصلت الأخبار إلى هشام بن عبد الملك استدعى عبيد الله بن الحبحاب، وعين على رأس ولاية المغرب كلثوم بن عياض القشيري سنة 123هـ (ابن الأثير، ع. دون تاريخ: 714). وهناك من يورد قصة أخرى لعزله: "...واختلفت الأمور على عبيد الله فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم" (النويري ، أ. 1985: 215).

ثالثا: معركة بقدورة سنة 124هـ: استهل الوالي الجديد، نشاطه في بلاد المغرب بالتوجه لقتال خالد بن حميد الزناتي، مدعوما بجيش قوامه اثني عشر ألف مقاتل من أهل الشام، بالإضافة إلى المدد الذي زوده به عمال مصر وبرقة وطرابلس، بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك، واستخلف على القيروان عبد الرحمان بن عقبة الغفاري (النويري ، أ. 1985: 215 - 216). وحدثت ملاسقات بين حبيب بن أبي عبيدة الذي كان مواقفا للبربر بتلمسان، و بلج بن بشر الذي كان على مقدمة جيش كلثوم بن عياض القشيري، بعدما أراد هذا الأخير أن ينزل بالعسكر الذي معه في منازل أهل القيروان، لكن كلثوم اعتذر لحبيب وسار إليه، كما تجدد الخلاف بين الطرفين أي بين حبيب بن أبي عبيدة، وبلج بن بشر، وكاد أن يتطور إلى قتال بين الطرفين. ولم يحدث تنسيق بين القيادتين في الخطة التي يواجهون بها جموع البربر (ابن الأثير، ع. دون تاريخ: 714 - 715، ابن عبد الحكم، ع. 1995: 247).

أدت هذه العوامل إلى انهزام الجيش الأموي في المعركة التي جرت على وادي سبو (وادي طنجة) سنة 124هـ، في منطقة تدعى بقدورة أو نقدورة، "فقتل كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، وسليمان بن أبي مهاجر، ووجوه العرب. وانهزمت العرب فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس... وهزيمة أهل مصر وأهل إفريقية إلى إفريقية" (النويري ، أ. 1985: 216).

ويذكر أن ثلث الجيش قتل، وأسر الثلث، ونجا الثلث الباقي. وترتب على هذه المعركة خروج المغرب الأقصى برمته عن سلطة الدولة الأموية، واستفحال خطر الخوارج الذين أصبحوا يطمعون في احتلال مدينة القيروان، واجتثاث الحكم الأموي من المغرب الإسلامي نهائيا.

رابعا: ثورة عكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهواري: على إثر الهزيمة في معركة بقدورة، ومقتل كلثوم بن عياض القشيري، وجه هشام بن عبد الملك إلى إفريقية حنظلة بن صفوان في صفر أو ربيع الآخر سنة 124هـ، وكان قبلها واليا على مصر (ابن عبد الحكم، ع. 1995: 249 - 250). ولقد أجرت هذه الهزيمة أطرافا صفرية أخرى على الثورة ضد الدولة الأموية، حيث أصبحت قاعدة المغرب الإسلامي هذه المرة مهددة. فما أن دخل حنظلة مدينة القيروان، حتى تهدده خطر ثائران صفريان، عملا بالتنسيق معا لاحتلال مدينة القيروان، وهما عكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهواري.

حاول حنظلة أن يقاتل كل طرف على حدة، فأسرع إلى لقاء عكاشة الصفري بالقرن، حيث دارت بينهما معركة فاصلة، انتهت بهزيمة جيش عكاشة، ثم أسرع حنظلة بالدخول إلى القيروان خشية أن يحتلها عبد الواحد بن يزيد الهواري، الذي زحف إليها في جيش قوامه ثلاثمائة ألف محارب، واستتفر حنظلة أهل القيروان للقتال، ووزع عليهم المال والسلاح للدفاع عن مدينتهم، وجرت المعركة الفاصلة بالأصنام على مسافة ثلاثة أميال من القيروان، فانتهت بهزيمة الصفرية، ومقتل عبد الواحد، كما أخذ عكاشة أسيرا فقتل من قبل حنظلة. وبلغ عدد قتلى هذه المعركة مائة وثمانين ألفا (الرقيق، إ. 1990: 79 - 85).

لقد أنقذ انتصار حنظلة في معركتي القرن والأصنام القيروان من السقوط في يد الصفرية، والمذهب السني من الزوال، وتراجع خطرهم الذي ما انفك يتعاظم منذ ثورتهم الأولى بقيادة ميسرة، وإن كان هذا الخطر لم يقض عليه نهائيا، لكنه لم يعد بالحجم الذي كان عليه في البداية، رغم أن الدولة الأموية كانت تعيش سنواتها الأخيرة.

شكلت ثورات الخوارج الصفرية خطرا كبيرا على الدولة الأموية، وساهمت في إضعافها، والتسريع بسقوطها، وبددت الكثير من الطاقات والإمكانات التي كان يمكن أن تستعمل في تقوية الأمة الإسلامية. وعلى الرغم من الزخم الكبير الذي رافق هذه الثورات والتفاف البربر حولها، لكن لم يبق لها أثر فيما بعد، باستثناء تأسيس دولة بني مدرار بسجلماسة، التي سرعان ما سقطت.

ولم يبق اليوم في منطقة المغرب أثر للأفكار لخارجية الصفرية بسبب ما كانت تتصف به من خروج عن الجماعة الإسلامية، ومغالاة في بعض المبادئ.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأثير عز الدين، علي. (دون تاريخ). الكامل في التاريخ. الرياض: بيت الأفكار الدولية.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمان. (1995). فتوح مصر والمغرب. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن خلدون، عبد الرحمان. (1992). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار الكتب العلمية.
- بن عميرة، محمد. (1984). دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- مجهول. (2005). مفاخر البربر. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- الناصري، أحمد. (1997). كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء: دار الكتاب.
- النويري، أحمد. (1985). تاريخ المغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب. الدار البيضاء: دار النشر المغربية.
- سالم، السيد عبد العزيز. (1981). المغرب الكبير، الجزء الثاني، العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية. بيروت: دار النهضة العربية.
- عبد الرازق، محمود إسماعيل. (1985). الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط2. الدار البيضاء: دار الثقافة.
- الرقيق القيرواني، إبراهيم. (1990). قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الشهرستاني، محمد. (1994). الملل والنحل. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية.